

عناصر الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين

"دعوة نبي الله موسى أنموذجاً قرآنياً"

Elements of mass communication in the texts of Quran and sunna
"The call of Musa: "A Qur'anic model"

محمد براء بن عبد الغني الصباغ *

جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة m.baraa.sab@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/11/24 تاريخ القبول: 2021/12/21 تاريخ النشر: 2022/01/25

الملخص:

تبرز أهميته الاتصال الجماهيري في ظل ما تقدمه وسائله المتنوعة وما يتبع ذلك من مخرجات متباينة، وذلك نتيجة لما تُتيحه أنظمتها من أسس ومبادئ ومثل اجتماعية متنوعة، وبذلك يتأكد القول بوجود علاقة تأثير متبادلة بين عناصر الاتصال وأفراد المجتمع "الجماهير"، ولأجل ذلك جاء البحث هادفاً إلى بيان ما يُميز مفهوم الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين وطبيعة عناصره وآلية عرض تلك العناصر، وقد جاءت الدراسة مقتصرة على واحدة من أهم صور الاتصال الجماهيري في السياق القرآني وهي دعوة كلیم الله موسى عليه السلام، وقد اعتمدت في دراستي على المنهج الوصفي التحليلي الذي فرض تقسيم الدراسة إلى مقدمة ومبحثين ثم خاتمة مبينة لأهم النتائج التي بينت حقيقة الترابط بين المرسل والمستقبل لبيان مفهوم الرسالة وفق آلياتها المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الاتصال؛ الجماهير؛ القرآن، موسى؛ المستقبل.

Abstract:

The importance of mass communication is highlighted in light of the various means provided by it and the various outcomes that follow, as a result of the various social foundations, principles and ideals offered by its systems. To explain what characterizes the concept of mass communication in the texts of the two revelations and the nature of its elements and the mechanism of displaying those elements. The study was limited to one of the most important forms of mass communication in the Qur'anic context, which is the call of Kalim Allah Musa, peace be upon him. The study is divided into an introduction and two chapters, and then a conclusion indicating the most important results that show the reality of the interrelationship between the sender and the receiver to clarify the concept of the message according to its different mechanisms.

Keyword: Connection, quran, masses, Mousa, resiver.

مقدمة:

الحمد لله الكبير المتعال، المتفرد بصفات الكمال، أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، {كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: 1]، أبان عمّا يميّز الإنسان ويفاضل بين أفرادهِ فقال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: 9]، ثم الصلاة والسلام على أكمل من علّم وأشرف من أرشد ووجه نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن شرف العلم بشرف معلومه، ولما كان القرآن الكريم رسالة الله الخالدة مبينا عن حقائق الدارين ودستورا قويمًا به تصلح أحوال العباد والبلاد كان الانشغال به بفهم آياته والوقوف على أسرار سورة وخفايا ألطافه من أعظم ما يشغل العبد به وقته ومن أسمى ما تستنهض به الهمم، ولذلك حرص أهل العلم قديما وحديثا على أن يكون لهم حظ من الانشغال بالتفسير وعلوم القرآن وما يتعلق به لما في ذلك من دور مركزي في فهم مراد الله وشرعه، ولأجل ذلك وجدت في دراسة عناصر الاتصال الجماهيري خطوة بحثية ناجعة للوقوف على كثير من قضايا الموضوعات

القرآنية المتعلقة بعلم الاتصال الحديث من خلال كثير من الأسس الشرعية التي تخدم الاتصال وتثريه في دراسة وصفية تحليلية، والله الموفق وبه أستعين.

مشكلة الدراسة:

إن السؤال الرئيس الذي يمثل المشكلة في هذه الدراسة هو: ما هي عناصر الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين وما هو حقيقة دورها المنوط بها؟ ويتفرع منه عدد من الأسئلة منها:

- ما هو مفهوم عناصر الاتصال الجماهيري في دعوة نبي كريم الله موسى عليه السلام؟
- ما هو دور عناصر الاتصال الجماهيري عند نبي الله موسى عليه السلام؟
- كيف وصف القرآن الكريم عناصر الاتصال الجماهيري في خبر نبي الله موسى عليه السلام؟

الهدف من الدراسة:

تهدف الدراسة إلى بيان مفاهيم عناصر الاتصال الجماهيري من خلال نصوص الوحيين، وطريقة تعامل نبي الله موسى عليه السلام مع "المستقبل" وطريقة إرسال "الرسالة" وتحديد "القناة" و"الشفيرة وغيرها من عناصر الاتصال.

أهمية الدراسة:

تظهر أهمية الدراسة من خلال بيان مركزية عناصر الاتصال في دعوة الأنبياء واستراتيجية نبي الله موسى عليه السلام وتعامله مع تلك العناصر تحديداً، وكيف وصف لنا القرآن الكريم تلك العلاقة وبيّنها.

الدراسات السابقة:

لدى النظر والاطلاع الدقيقين والبحث عن هذا الموضوع فإنني لم أقف على دراسة تبين مفهوم الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين من حيث هو مصطلح علمي له مفرداته الخاصة، وإنما وجدت بعض الكتابات قد تناولت شيئاً من ذلك في سياق حديثها عن الدعوة وأساليبها لكنها لم تدرس ما يسمى في علم الاتصال بالتغذية الراجعة ولم تصف أحوال المرسل ولا القناة ولا الشيفرة، ونتيجة لذلك فهي لم تعرض بشكل دقيق لتلك المفاهيم ودورها في سياق الدعوة التوحيدية.

منهج الدراسة:

وقد فرضت طبيعة الدراسة استخدام المنهج التحليلي والاستنتاجي من خلال الوقوف على تفاصيل عناصر الاتصال في القرآن والسنة وبيان مفهومها من خلال دعوة نبي الله موسى عليه السلام، وكذلك المنهج الوصفي من خلال تقسيم الدراسة لمباحث ومطالب.

المشاكل المتوقعة:

- 1) صعوبة تطبيق مفاهيم عناصر الاتصال الحديثة على قصة نبي الله موسى وأحداث سيرته في القرآن الكريم، فقد تتداخل بعض المصطلحات كالقناة والشيفرة ونحوها.
- 2) ندرة الدراسات التي ربطت بين علم الاتصال ومواقف الأنبياء عموماً وسيدنا موسى عليه السلام خاصة.

النتائج المتوقعة:

- 1) الوقوف على تفاصيل عناصر الاتصال في دعوة نبي الله موسى، وطريقة عرضها في القرآن الكريم.
- 2) بيان وحدة المرسل والرسالة والقناة بشكلها العام بين دعوة نبي الله موسى والنبي ﷺ.
- 3) أن الإسلام بمفهومه العام أسس لمنظومة اتصال تتميز بقيمتها العليا ومثلها الفاضلة التي من خلالها يمكن تأكيد رسالة الموحد.

خطة الدراسة:

هذا وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها إلى: مقدمة ومبحثين وخاتمة وهي كالآتي:

المقدمة: وقد جاء فيها سبب اختيار الموضوع وأهميته وخطة البحث والمنهجية المتبعة فيه وأبرز إشكاليات الدراسة، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: مفهوم الاتصال الجماهيري وعناصره.

المبحث الثاني: عناصر الاتصال الجماهيري عند نبي الله موسى.

الخاتمة: وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

وصلّى اللهم على سيدنا محمد وعلى آل بيته وصحابته أجمعين.

1. المبحث الأول: مفهوم الاتصال الجماهيري وعناصره

1.1 المطلب الأول: مفهوم الاتصال الجماهيري لغة واصطلاحاً

تكاد كلمة المشتغلين في مجال الاتصال تجتمع على تصور موحد لمصطلح "الاتصال الجماهيري"، ولا يجد كثير منهم حاجة علمية لتعيين تعريفٍ محدّدٍ جامع مانع يبيّن المقصود منه؛ لكنّ ما تنبني عليه التّصورات الفردية لا تعني بالضرورة تطابق التّصورات الكلية، وهذا بالضّبط أحد أهم أسباب الاختلاف في كثيرٍ من الملفات الاجتماعية والإنسانية المتنوعة، فمن تأمّل عدداً من تباين الآراء في مسألة معينة وجد أنّ أسّ الاختلاف كان ضبابيّة تصوّر المفهوم العام، وعدم تطابق الصّورة عند الطرفين، ولما كان البحث هنا لا يقتصر على مخاطبة المشتغلين بعلم الاتصال فحسب بل يشمل شريحة أكبر من ذلك بكثير؛ كان لزاماً عليّ بيان مفهوم الاتصال الجماهيري بشكل أكاديمي يستطيع القارئ من خلاله تصوّر المعنى المراد بشكلٍ واضحٍ ودقيق.

فإنَّ لكلِّ علمٍ من العلوم لُغته الخاصَّة، وقضيةٌ تحديد المصطلحات من أهمِّ القضايا الخادمة لمبدأ التَّصورات، لا سيما عند ترابط عددٍ من العلوم وتلاقح المخرجات الخاصة بها في مسألةٍ محددة، وبذلك يمكن الوصول لنتيجة معرفية واضحة محددة، إذ الحُكم على الشَّيء فرغٌ عن تصوُّره.

أولاً: الاتصال لغة:

عند البحث والتأمل في مصطلح الاتصال في معاجم اللغة نجد أنهم قد استخدموا مصطلحين اثنين وهما مصطلح "التواصل" ومصطلح "الاتصال" وكلاهما مشتق من الجذر اللغوي "و ص ل".

جاء في لسان العرب:

- وَصَلَ: أي وَصَلَتِ الشَّيْءَ وَصْلاً وَصِلاً، وَالْوَصْلُ ضِدُّ الْهِجْرَانِ. فالوصلُ خِلَافُ الْفَصْلِ، والتواصلُ ضدُّ التَّصَارُمِ (أي: التقاطع والهجْران).

- وَالْوُصْلَةُ: الْإِتِّصَالُ. وهو اتِّصَالُ شَيْءٍ بِالشَّيْءِ. قَالَ اللَّيْثُ: كُلُّ شَيْءٍ اتَّصَلَ بِشَيْءٍ فَمَا بَيْنَهُمَا وَصْلَةٌ، وَالْجُمُوعُ وَصَلٌ. وَالْوَاصِلَةُ مِنَ النِّسَاءِ: الَّتِي تَصِلُ شَعْرَهَا بِشَعْرِ غَيْرِهَا.¹

وعند التأمل نجد أن ابن منظور يشير إلى فرق دقيق بين التواصل والاتصال، ف(التواصل) مفردة إنسانية تحيل على معنى الترابط العاطفي والعلاقة التعارفية بين الناس، وضده الهجْران والتقاطع.

أما (الاتصال) فنجد فيه بروز معنى الرابط والأداة الرابطة بين شيئين أو أكثر ولا يشترط فيه المعنى الإنساني الموجود في مفردة "التواصل".

ولعلنا بهذا التفريق نستطيع أن نختار لفظ الاتصال كترجمة أدق لكلمة communication والتي يغيب في تعريفها -حسب معاجم اللغة- المعنى الإنساني الذي يشير للعلاقة العاطفية الإنسانية المتمثلة بالتزاور والتراحم، وإنما هي تفيد المعنى المادي كالربط والنقل.

وبذلك يكون اختيار لفظ "الاتصال" أدق عند الحديث عن وسائل الإعلام المعاصرة؛ ذلك أن المؤسسة الإعلامية لا تسعى لبناء علاقات إنسانية تراحمية بينها وبين جمهورها وإنما تستخدم أدوات لنقل مجموعة من المعلومات والأخبار وغيرها. وإلى هذا المعنى أشار الموسى عصام سليمان في كتابه العرب وثورة الاتصال الأولى²، كما أكدته كل من الدكتور هشام المكي³ وخورشيد كمال مراد⁴.

ثانيا: الجمهور لغة: جاء في لسان العرب: جمهور كل شيء معظمه، وجمهور الناس جُلُّهم.⁵

ثالثا: الاتصال الجماهيري اصطلاحا:

تعرف مي العبد الله الاتصال الجماهيري فتقول: ((بث رسائل واقعية أو خيالية، تتصل بموضوعات معينة، على أعداد كبيرة من الناس، مختلفين فيما بينهم في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، ويوجدون في مناطق متفرقة))⁶.

والذي يظهر بعد الوقوف على عدد كبير من التعريفات عند المختصين بعلم الاتصال أنهم لم يتفقوا على حد واضح لهذا المصطلح، وذلك لتفاوتهم في تصور معنى الاتصال ومدى قدرتهم على صياغة تعريف جامع مانع، لكن القدر المشترك بينهم هو محاولتهم تضمين عناصر الاتصال ووظائفه في تعريفاتهم المتباينة، وعناصر الاتصال هي:

- 1- المرسل (من): ويقصد به الجهة التي ترسل رسالة للمستقبل.
- 2- الرسالة (المضمون): وهي المحتوى الذي يريد المرسل إيصاله للمستقبل، وقد يكون كتابة أو إشارة أو غير ذلك.
- 3- المستقبل أو المستلم (من): وهو الجهة المعنية باستقبال رسالة المرسل.
- 4- القناة: والمراد بها وسيلة التواصل التي يعتمد عليها المرسل في إيصال رسالته، كشخص أو تلفاز أو مذياع، وما شابه

5- الشيفرة: ويقصد بها تلك الرموز المستخدمة والتي يدركها طرفا الرسالة -المرسل والمستقبل- جيدا، فالكلام اللفظي مثلا شيفرته اللغة الإنسانية.

6- التغذية الراجعة: وهي ردة الفعل الصادرة عن المستقبل، ويمكن للمرسل من خلالها تقييم مدى نجاحه في إيصال رسالته.

7- التشويش: وهو كل ما يمكن من خلاله إنقاص جودة إيصال الرسالة، وقد يكون التشويش داخليا أو خارجيا.⁷

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المشتغلين في علم الاتصال قد اختلفوا في تحديد هذه العناصر وتعيينها فزاد بعضهم البيئة الداخلية والسياق وغير ذلك.

وأما وظائف الاتصال، فيمكن إجمالها بالآتي:

1- الإخبار والإعلام.

2- التثقيف.

3- الترفيه.

وبعد الوقوف على عناصر الاتصال ووظائفه الإجمالية يمكن القول بأن الاتصال الجماهيري هو: ((عملية يقوم المرسل من خلالها بإرسال رسالته للمستقبل عبر قناة مشفرة بهدف الإعلام أو التثقيف أو الترفيه محاولا في ذلك تجنب كل ما يعيق إيصال رسالته)) وبذلك يمكن تعميم هذا المفهوم ليشمل الاتصال الجماهيري بصوره المختلفة وعدم حصره في مفهومه الحديث كما فعل جوزيف دومينييك في كتابه *The Dynamics of Mass Communication*.

بقيت الإشارة إلى أن مفهوم الاتصال الجماهيري لا يقتصر على ما أشيع في عصر التقنية الحديث من ضرورة وجود مؤسسة إعلامية تنشر رسالتها عبر محطات تلفازية أو راديوية ونحو ذلك فهذا فهم ضيق لطبيعة مفهوم الاتصال الجماهيري الذي يجري بين الناس أثناء التفاعل الاجتماعي

بل يشمل كل حدث ينتج عنه عملية اتصال بين مرسل ومستقبل على نطاق واسع، وهذا ما جعل بعض المشتغلين في علم الاتصال يبحثون عن مصطلح شامل يوطر نظريا مع رسم نماذج تفيد كل الحالات في مختلف العلوم والسياقات التي يندرج فيها الاتصال.⁸

2.1 المطلب الثاني: مفهوم الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين

أولا: تأريخ الاتصال الجماهيري الدعوي وعلاقته بالرسالة الخاتمة

خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وجعله خليفة على الأرض قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: 30]، ومن بعد آدم ذريته الموكلة بالخلافة والإيمان قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس: 14]، فكانت البشرية مذ أهبط آدم إلى الأرض ترتقي قرنا بعد قرن في معارج الفكر والخلق والإيمان، وذلك في مختلف الظواهر الحضارية والعلاقات الإنسانية المتنوعة على تنوع أجناسها وأنواعها. وكان سبحانه جل وعز يتابع في ذلك إرسال الأنبياء والرسل بحسب حاجة الأمم والشعوب قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: 24]، وكان ينزل سبحانه على رسله كتباً يبلغون بها دعوة الحق سبحانه لعامة البشر فيوصلون إليهم رسالة الإسلام العامة ويبينون لهم معالم الإيمان وسبل الحق والرشاد قال تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: 213].

ثم كان من واجب من آمن بدعوة الأنبياء تبليغ تلك الدعوة وإيصال رسالة السماء، لكن تلك الأمم لم تكن مؤهلة بحسب موروثاتها الفكرية والحضارية والنفسية لحفظ كتاب الله ودينه من التحريف والتبديل والتغيير، ولا أمانة عليه، بل إنها قد تنازعتهم الأهواء فحرفوا وبدّلوا وغَيَّرُوا، قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 78] ولما وصلت البشرية إلى مرحلة تسمح لها باحتضان رسالة خاتمة وتوفرت لديها سبل التواصل الحضاري التي يمكن من خلالها ضمان نقل تلك الرسالة لعامة الشعوب، كان من حكمته

سبحانه وتعالى إنزال رسالة خاتمة ونبي مرسل خاتم تتحقق على يديه نشر دعوة الإسلام قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: 40].

ثم إن هذه الأمة الخاتمة فضّلت على غيرها بما يضمن استمرار إيصال رسالة السماء قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110] فكان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضابطاً لدوام نشر "رسالة" الإسلام الخالدة عبر حقب الأجيال المتتالية، فبات عامة الناس بذلك مكلفين بمهمة الإيصال والبلاغ، ولا يقتصر الأمر على شخص واحد دون غيره كما كان سابقاً عند الأمم والشعوب قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104] وفي ذلك بيان بوجوب حمل رسالة الحق سبحانه وتبليغها للناس وهو ما عرف لاحقاً بالدعوة إلى الله تعالى قال سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125] فكانت البشرية بذلك موعودة بضمان إيصال دعوة الإسلام وتبليغها عبر تعاقب الأجيال فقد أمر سبحانه عباده بالتبليغ، وضمن لهم حفظ الكتاب من التحريف {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]

وبذلك كله نلاحظ ومضة موجزة عن تأريخ الاتصال الجماهيري في إيصال رسالة الحق سبحانه للناس أجمعين، وكيف أنّ الإسلام جاء متمماً لذلك ومكملاً له، قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] ولعل هذا المعنى من أدق وأعمق ما يمكن من خلاله فهم تفضيل دين الإسلام واختصاصه دون غيره بتلك المنزلة والقيمة الحضارية التي خصها الله سبحانه به، فقد جاء الإسلام بشريعة كاملة تصلح لجميع الشعوب وتصل لجميع الناس بما يناسب أحوال العباد ومتطلباتهم على اختلاف أزمنتهم، وهذا ما جعل اليهودي في زمن أمير المؤمنين يصرح بذلك ويقول: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} [المائدة: 3]⁹

وإلى ذلك أشار أبو زهرة في تفسيره فقال: ومعنى {أكملت دينكم}: أي أكملت بيان ما أمركم به وما أنهاكم عنه، وبينت ما يحل لكم وما يحرم عليكم، وأكملت الكتاب الذي تضمن شرعي، والذي هو حجتي عليكم، والحجة لكم في أمر دينكم، وأوضحت فيه الأدلة التي ترشدكم إلى تعرف ما تكون فيه حاجتكم، وما تعرفون منه بالاستنباط والتفكير مما تحتاجون إلى معرفته من أمر دينكم، وخلاصة القول: إن إكمال الدين هو إكمال بيانه و"إيصاله".¹⁰

- فما هي عناصر الاتصال الجماهيري في ضوء نصوص القرآن والسنة؟

- وبماذا يتميز الاتصال الجماهيري بمفهوم الإسلام عن غيره ولماذا؟

- وما هي أبرز القيم التي تجعل من الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين قيمة أخلاقية تخاطب الفرد وفق حاجياته ومتطلباته؟

ثانيا: عناصر الاتصال الجماهيري في نصوص الوحيين، وميزاته عن غيره

أولاً: المرسل:

والمراد به في خطاب الوحي هو الحق سبحانه وتعالى، فهو الجهة التي تصدر عنها الرسالة السماوية المتضمنة للأمر والنهي والإخبار بالغيب ونحوه، ويصف علماء الاتصال هذا "العنصر" بأنه الأهم؛ لأنّ لولاه لما وجدت رسالة ولا مستقبل ولا قناة. وقد بيّن ذلك سبحانه وتعالى في كتابه إذ قال: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [الزمر: 23] وافتتاح الجملة بلفظ الجلالة يؤذن بدلالات لغوية منها:

أولاً: الاختصاص: فهو سبحانه وتعالى المنزل (المرسل) لا غيره من بني البشر وفي ذلك رد على من يزعم أنه أساطير الأولين.

ثانيا: التفخيم والتعظيم: فهو سبحانه عز وجل أعظم عظيم وهو بعظمته أنزل أحسن حديث.

ثالثاً: التقوية والتأكيد: فهو سبحانه المرسل والمنزل لا غيره أبداً.¹¹

ثانيا: الرسالة:

وهي الفكرة أو المحتوى الذي يتم نقله من المرسل إلى المستقبل، وقد قصّ القرآن علينا جملة من الرسائل التي أرسلها سبحانه (المرسل) على عباده (المستقبلين) فذكر منها: صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل وبيّن لنا فضل بعض تلك الرسائل فقال تعالى في رسالته لكليم الله موسى عليه السلام: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: 44] وقال سبحانه في وصف رسالته المنزلة على عيسى عليه السلام: {وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [المائدة: 46] ثم إنه جل وعز ختم رسائله بالقرآن فقال: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا} [المائدة: 48] فهو خاتم الرسالات كما أنه جاء مصدقا بكل كتاب نزل قبله وأمينا على ما قد طرأ عليها من تحريف وتبديل.¹²

وقد جاءت هذه الرسالة على غير ما جرت عليه عادة البشر فكانت معجزة بحد ذاتها متضمنة للمنهج السماوي المنزل، مما جعل الجنّ يعجبون عند سماع شيء منها، قال تعالى واصفا لنا قولهم: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأحقاف: 29، 30] ثم إنه تعالى فصل لنا قولهم في سورة كاملة جاء فيها: {لَّ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: 1، 2].

ولقد نقل لنا التاريخ موقفا غريبا لرجل من رجالات قريش "المشوش" وهو الوليد بن المغيرة وقد نصب العداء لرسالة السماء لكنه لم يستطع أن ينكر عظم تلك الرسالة وعلوها و عذوبة ألفاظها، وجزالتها، وحلاوتها وقوة تركيبها، وسمو معانيها، فقد جاء كما عند البيهقي¹³ وغيره أن قريشا علمت بزيارة الوليد للنبي ﷺ وسماعها منه فطلبت منه أن يعيب قرآنه أو ينكر بعض ما فيه، لكنه وقف أمامهم وقد علم أن لا طاقة له بذلك فقال: والله، ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني، والله، ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا،

والله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته.

إن الحديث عن علو شأو الرسالة التي أنزلها الله تعالى خاتمة لكل الرسائل يمكن إجماله في آية واحدة من كتاب الله العزيز، قال تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2] والمراد أن هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه رسالة منزلة من عند الله، ولا ريب في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحد أن يأتي بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة - وإلى هذا أشار بقوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} [البقرة: 23] وارتباب كثير من الناس فيه، إنما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عمى بصيرتهم، أو عن التعنت عنادا واستكبارا واتباعا للهوى أو تقليدا لسواهم.¹⁴

ثالثا: المستقبل

ويقصد به الجهة المعنية باستقبال "رسالة" "المرسل" وتلقيها، وقد بين القرآن الكريم أن الجهة المكلفة باستقبال تعاليم تلك الرسالة هم عامة البشر قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: 1] وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي)) وذكر منها: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة))¹⁵

رابعا: القناة

والمراد بها الجهة المكلفة بإيصال رسالة المرسل (الحق سبحانه) إلى المستقبل (عامة الناس): وهم أنبياء الله ورسله، وقد ذكر لنا القرآن الكريم عددا منهم، ومبيناً وظيفتهم فقال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَا هُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِغَلَا يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا { [النساء: 163 - 165].

فكان دور الرسل تبليغ رسالة الملك جل وعز على أكمل صورة وأتم بيان قال تعالى موضحا وظيفة الأنبياء الأولى: { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } [النحل: 35]

ولما كانت الرسالة الإلهية واحدة تدعو إلى التوحيد ونبد الشرك جاء النبي ﷺ مبينا ذلك بضرب مثل موضح له فقال: ((الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد))¹⁶، فأصل الدين الذي كلف المرسلون بتبليغه واحد { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل: 36] تماما كما اتفق أبناء العلات على أصل واحد وهو الأب.

خامسا: الشيفرة

ويقصد بها الرموز المستخدمة بين المرسل (الحق سبحانه) وبين المستقبل (عامة الناس)، فالكلام العربي - كما يظهر - هو الشيفرة المستخدمة في رسالة الحق سبحانه والتي ختم بها الرسائل السماوية، قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [يوسف: 2]

ولكنه قد سبق بيان أن المستقبل في رسالة السماء الأخيرة (القرآن الكريم) هم (عامة البشر)، فكيف يصحُّ اعتبار اللغة العربية شفرة عامة لهم وقد ذكر الله سبحانه أنه ما من نبي إلا وقد نزل بلغة قومه الخاصة التي يفهمونه بها { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [إبراهيم: 4]؟

والإجابة عن هذا قد تطول وذلك لتباين المسائل التي يمكن الخوض فيها في هذا المجال، وقد بُسط القول في هذه القضايا عبر كتب اللسانيات ونحوها، غير أنني أختصر كثيرا من ذلك فأقول: لما كانت الرسالة السماوية الخاتمة تشمل عامة الناس ولا تقتصر على قوم معينين كان لابد من لغة عالية بمعانيها وألفاظها ومخارجها وأصول اشتقاقاتها تصلح لتكون أساس الخطاب الإنساني، وهذا ما يميز العربية عن غيرها من اللغات، فالعربية لا تعدلها لغة في ذلك.

هذا وإنّ من كمال العلم إدراك أنّ العربية لم تكن هي الشيفرة العامة في رسالة السماء بل إنّها كانت بمثابة الوعاء الأساسي الذي حوى بين جنباته بقية الشيفرات من علم وتشريع وحضارة وأخبار وغيرها، فقوم بلغوا من البيان أعلاه وجدوا فيه أنه الحق الذي لا ريب فيه وقد أشرنا لقول الوليد بن المغيرة في ذلك، وقوم أشادوا حضارة ووضعوا فيها قوانين تضمن سعادتهم وجدوا في القرآن من التشريع ما جعلهم يدركون أنه الحق لا ريب فيه، وقوم جمعوا أخبار السابقين فلا يعرفها غيرهم جاء القرآن مبينا لهم ما غاب عنهم من كتبهم التي كانوا يظنون أنّهم وحدهم من يعرفها فعلموا أن القرآن رسالة الحق سبحانه إليهم، وهكذا كانت شفرة القرآن لكل الناس وإننا لا نزال حتى يومنا يتناهى إلى مسامعنا أن فلانا من غير العرب آمن بالقرآن لأمر معين وجده فيه، والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى، وعلى هذا فشفرة القرآن أكبر من كونها لغوية فحسب بل إنّها قد جمعت صنوفا من الشفرات التي لا يزال الناس يتعاقبون على تقييدها وبيان تفاوتها وهذا ما يعرف بأوجه الإعجاز القرآني.

سادسا: التغذية الراجعة

والمراد بها في سياق مفردات علم الاتصال: ردة الفعل الصادرة عن المستقبل، ويمكن للمرسل من خلالها تقييم مدى نجاحه في إيصال رسالته، وهي تشمل أموراً منها: إشعار المستقبل بتلقي الرسالة كما تشمل طبيعة تلقيه لفحوى الرسالة والعمل بمقتضاها.

وبذلك -وحسب مفهوم علم الاتصال- يتبين أنّ تقييم مدى نجاح المرسل في إيصال رسالته يعتمد على ردة فعل المستقبل وتقبله لمضمون الرسالة.

فكيف وصف لنا القرآن ردة فعل المستقبلين لرسالة السماء؟ وهل هذا فعلاً هو معيار نجاح إيصال رسالة السماء؟

يقول الله تعالى مبينا لنا حال الأقوام المستقبلين الذين وصلتهم رسالة الملك سبحانه: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ} [الذاريات: 52] فكما كذبك قومك من قريش وقالوا ساحر أو مجنون كذلك فعلت الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم وقالوا

مثل مقاتلتهم، فقد تواردت نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء على تفرق أزماهم، فهم ليسوا ببدع من الأمم، ولا أنت ببدع من الرسل، فكلهم قد كذبوا وأوذوا.¹⁷ بل إن النبي ﷺ ذكر أن بعض الأنبياء يبعث يوم القيامة وحيدا وما آمن من قومه أحد، قال ﷺ واصفا حال بعض الأنبياء يوم القيامة من عدم إيمان أقوامهم بهم: ((عرضت علي الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط¹⁸، والنبي ليس معه أحد))¹⁹ فالنبي ﷺ يبين كيف أن الأنبياء يبعثون يوم القيامة وما آمن من أقوامهم إلا القليل، بل إن بعضهم يبعث وما آمن به أحد أبدا.

لقد جاءت نصوص الوحيين واضحة الدلالة في بيان ردة فعل المستقبلين لرسالة السماء وكيف أنهم كذبوا بل وخرّضوا على عداء حملة الرسالة وهم كما بينا القناة الواصلة بين المرسل وبينهم. فهل هذا يشير إلى عدم نجاح إيصال الرسالة السماوية؟ هل معنى ذلك أن الأنبياء لم يؤديوا الدور المنوط بهم حق الأداء؟

لا بد قبل الإجابة عن هذه الأسئلة المغلوطة منطقيا بيان أمور أهمها:

- وظيفة الأنبياء الأساسية في سياق عملية الاتصال بين المرسل والمستقبل: وقد جاء توضيح ذلك جليا في القرآن الكريم، قال تعالى: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل: 35] فدور الأنبياء والمرسلين في إيصال رسالة الحق سبحانه للناس هو البلاغ، وذلك من خلال أمرين أساسيين هما البشارة والندارة قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَالِ الْإِنسَانِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: 165] وبذلك يتحقق الهدف من إرسال الرسل وبعث الأنبياء وهو إقامة الحجة وبيان دليل.

- إيصال الرسالة السماوية للمخاطبين وتحقيق سياق الاتصال المطلوب هو أمر له شقان: أولهما: البيان والتعريف والدلالة لطريق الخير والشر وهو أمر جاءت به الرسالة السماوية وكلفت ب القناة المعنية (أنبياء الله ورسله)، قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} [فصلت: 17] أي بينا ووضحنا لهم سبل الحق.

ثانيهما: التوفيق والسداد، وهو أمر لم تكلف به القناة الواصلة (الأنبياء والرسل) ولذلك قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: 56] ولذلك وجدنا كيف أن كثيرا من الأنبياء والمرسلين يعيشون يوم القيامة وما آمن بهم أحد.

وبذلك يتضح أن وظيفة القناة بين المرسل والمستقبل في نصوص الوحيين هي هداية البلاغ لا هداية التوفيق والسداد، وبه أيضا يعلم أن أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامهم عليه قد أدوا الرسالة وبلغوا الأمانة تماما كما أنيط بهم من غير إخلال ولا إنقاص.

سابعاً: التشويش

والمراد به كل ما يمكن بواسطته إنقاص جودة إيصال الرسالة وتبليغها ويعرف ذلك من خلال متابعة التغذية الراجعة ومراقبتها.

سبق فيما مضى بيان أن التحريف والتبديل قد طرأ على الرسائل السماوية السابقة فلم تبق الرسائل كما أنزلها الله بل تعرضت للتشويش الداخلي من نفس المؤمنين بتلكم الرسائل، قال تعالى واصفا فعلهم: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: 78]

ثم إنه تعالى لما أراد للرسالة الخاتمة الخلود تكفل بحفظها ولم يجعل الأمر مرتبط بمن يقوم بنقلها وتبليغها كما كان في الرسائل السابقة، قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9] فكان بذلك أمان لتلك الرسالة بما يسميه علماء الاتصال من التشويش الداخلي.

وأما التشويش الخارجي والمتمثل غالبا بمن ينصب العدا في سبيل منع إيصال رسالة السماء فقد بين لنا القرآن الكريم كثيرا من أخبارهم، كما أنّ النبي ﷺ قد تعرّض لا سيما في بداية دعوته لكثير من أشكال وصنوف التشويش الخارجي والذي تكفل به صناديد قريش وكبار رجالاتها. وقد ذكر لنا القرآن طرفا من وسائل أهل مكة في التشغيب والتشويش على دعوة النبي ﷺ وذلك بعد عجزهم عن الإتيان بمثل ما جاء به، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} [فصلت: 26] فلما خشيت قريش أن يستميل النبي ﷺ قلوب الناس قالوا: متى قرأ مُجَّد فلنلغظ نحن بالملكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والإرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه، وهذا الفعل منهم هو اللغو والتشويش.²⁰

قال ابن الخطيب: {وَالْعَوُّ فِيهِ} أي شوشوا عليه بكلام ساقط لا معنى له، ولا طائل وراءه

[ص: 586] {لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} المؤمنين بهذا اللغو والتشويش.²¹

ويعد التشويش من قضايا الاتصال الذي عنيت في القرنين الأخير بشكل ملحوظ وذلك باستخدام عدد من الأساليب التي من شأنها التقليل من نجاعة إيصال الرسالة للمستقبلين على الهيئة التي أرادها المرسل وقصدها.

1.2 المطلب الأول: التهيئة العامة لحمل "الرسالة" ونقلها "للمستقبلين"

لقد بين لنا القرآن الكريم ثقل المهمة التي كُلف بها كليم الله موسى عليه السلام فقد نشأ في بيئة يصعب فيها القيام بمهمة إيصال "رسالة" السماء "لبنی إسرائيل" في ظل وجود مصدر "تشويش" أساسي متمثل في طاغية مصر الأول فرعون ومن تحته وزيره هامان الذي لا يقل طغيانا وكفرا عن سيده، فما هي أبرز المراحل التي مرّ بها عليه السلام في سبيل تحقيق "اتصاله" الخاص مع قومه "المستقبلين" في ظل حكم فرعون وهيمنته "المشوش الخارجي"؟

1- نشأة "القناة":

تربّى عليه السلام في قصر فرعون، وكان قريبا منه يعلم كثيرا من الأمور التي قد تخفى على غيره من أهل قومه، قال سبحانه وتعالى حكاية عن فرعون وهو يخاطب موسى عليه السلام بعد أن كبر: {قَالَ أَلَمْ نُزَبِّكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ} [الشعراء: 18]، فقد كان "المرسل" (سبحانه وتعالى) يهيئه لمهمة الإرسال التي سيحظى بها ويرعاه ويحفظه، قال تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]

2- "الحدث" غير المتعمد:

ولما شبَّ عليه السلام واكتملت رجولته وظهر منه العطف على قومه من بني إسرائيل المضطهدين، دفع عليه السلام أحد المصريين دفعا قويا بعد أن استنصر رجل مستضعف من قومه من بني إسرائيل فمات المصري! حينها نصحه أحدهم بالخروج من أرض مصر لأن الأمر قد وصل للقصر الفرعوني ولا فرار من العقاب، قال تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [القصص: 20]

3- الاستقرار الداخلي والخارجي لل"قناة":

ويقصد به هنا استقراره عليه السلام بعد أن توجه إلى مدين وتاهَّل بها من ابنة زوج صالح عرفت قدره ومكانته فقالت {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: 26]، ثم مكث في مدين عشر سنين، وصنعه الله فيها لتلقي الرسالة وإيصالها لقومه، ثم عزم على الرجوع إلى أرض مصر مرة أخرى بعد أن طال غيابه عنها.

4- وضوح حقيقة "المرسل" وبيان طبيعة "الرسالة":

أثناء رجوعه عليه السلام مع أهله إلى مصر اضطر للبحث عن جذوة نار يقضي بها حاجته، قال تعالى: {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [القصص: 29] وكانت هذه النار بداية مشروع "الاتصال" في قصة موسى عليه السلام، عندها دار حوار بين المرسل (الحق سبحانه) وموسى عليه السلام والذي كان يمثل دور ال(القناة)، وقد جاء في ذلك الحوار بيان لطبيعة الرسالة (النبوة) والتأكيد على ثقل حمل هذه المهمة وإيصالها للمستقبلين (بني إسرائيل) لا سيما في وجود المشوش الخارجي (فرعون وجنده).

فقد أبان سبحانه وتعالى لكليمه موسى عليه السلام أصول (الرسالة) وثوابت الدين، وذلك عبر أمور منها:

- بيان طبيعة العلاقة مع صاحب الرسالة (سبحانه وتعالى): قال عزوجل: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه: 12].

وقال تعالى مؤكداً ذلك: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: 14]

- بيان أنه عليه السلام هو المعنى بمهمة الاتصال دون غيره: قال تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} [طه: 13]

- التحذير من المشوشات الخارجية التي سيواجهها عليه السلام في مهمته: قال تعالى: {فَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه: 16]

5- تجربة عملية للشفرة (المعجزات) التي سيتم اعتمادها في نقل الرسالة للمستقبلين:

قبل أن يكلفه سبحانه وتعالى حمل الرسالة إلى فرعون وقومه، أجرى له آيات نبوته ورسالته، بتجربة عملية ليكون على استعداد لإجرائها عند الحاجة إليها إذا واجه فرعون وملأه، وقد كانت هذه الآيات هي إحدى الشفرات التي خوطب بها قوم موسى عليهم، فإنهم لما وصلتهم تلك الشفرات آمنوا وصدقوا.

ومن أعظم تلك الآيات:

أ- **العصا:** وقد كان لها دور عظيم في حياة نبي الله موسى، ومن تأمل حياته عليه السلام وجد كيف أنه ارتقى في استخدام هذه الشيفرة على أتم وجهه، وقد كان ذلك من خلال مراحل ثلاثة:

- ولى مدبراً عند رؤيتها للمرة الأولى: فقد بين لنا سبحانه وتعالى كيف أنه عليه السلام وجد نفسه يهرب عند رؤية العصا للمرة الأولى، قال تعالى: {وَأَن أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} [القصص: 31]

- الخوف: وذلك بعد أن وجد أن القوم أيضاً يملكون شفرات مشابهة ولها تأثير قد يكون مؤثراً على المستقبلين، قال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ ثُلُقِي وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ

بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُحْيِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى { [طه: 65 - 68]

- الثبات واليقين التام: فإنه وبعد أن أدرك فرعون قوم موسى عليه السلام خاف قومه وظنوا أن فرعون قد تمكن منهم { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ } [الشعراء: 61]، عندها خاطبهم موسى عليه السلام بيقين المؤمن بربه ثم استخدم العصا مرة أخرى وقال: { قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء: 62، 63]

ب- اليد: فقد أمره سبحانه أن يدخل يده في شق ثوبه ثم يخرجها فيجدها متلازمة مضيئة من غير سوء، فكانت تضيء كشعاع الشمس، قال تعالى: { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [القصص: 32]

وبذلك نرى كيف أنه عليه السلام تلقى الرسالة وشاهد بعض آياتها الدالة على صدق رسالته التي سيواجه بها قومه وعلى رأسهم فرعون وزبائنه.

2.2 المطلب الثاني: دليل استخدام الشيفرات مع المشوش الخارجي:

ويقصد بذلك البيان من الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى عليه السلام في كيفية التعامل مع فرعون وآلية دعوته لتلقي الرسالة، فبعد أن عرف موسى عليه السلام أنه نبي مرسل وأنه موجه بالمقام الأول إلى فرعون ملك مصر الظالم المتجبر، وبأن مكلف بدعوته للتوحيد ونبد الكبير والشرك بالله سبحانه، أبان له عز وجل الأسلوب الحكيم والطريق القويم في التعامل معه، قال تعالى مخاطباً موسى وأخاه هارون: { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي دِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } [طه: 42 - 44]

ثم أبان الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام أنه هو المسؤول الأول عن توجيه الرسالة والخطاب الدعوي لفرعون، فعلمه عبارات تصلح للتعامل معه، قال تعالى: {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحْشَىٰ} [النازعات: 17 - 19] وفي ذلك تأكيد على ما تضمنته هذه الرسالة الربانية من قيم ومثل عالية، فالمطلوب في الدعوة الإيناس والتفرق واتخاذ الوسائل المحببة لجذب قلوب المستقبلين.

كان من الممكن أن يقال لفرعون:

- (تَزَكَّى) بصيغة أمر مجرد دون مقدمة.
- أو أن يقال له (هل تتزكى) على طريقة العرض بالاستفهام.
- أو حتى أن يقال له (هل لك أن تتزكى) بإضافة (لك).

لكنه سبحانه قال: {هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّى} [النازعات: 18]، وصية المرسل سبحانه جاءت مشتملة على مقدمة هي أطول ما يمكن من مقدمات في أسلوب عبارة عربية، فلفظ (هل) كلمة: حرف، ولفظ (لك) كلمتان: حرف واسم، ولفظ (إلى) كلمة: حرف، والمطلوب جاء بصيغة الفعل المضارع لا بصيغة فعل الأمر؛ لأن الكلام مبني على العرض التخييري بأسلوب الاستفهام.²²

وبذلك نجد كيف أنه سبحانه وتعالى أبان عن الوسيلة الأنجع في إيصال الرسالة للمستقبلين وذلك بالابتعاد عن الغلة والمخاشنة في الخطاب، قال تعالى مفصلاً ذلك بمزيد من الإيضاح: {فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه: 47]

ومن خلال تلك الوقفات ندرك كيف أن سبحانه أمد كليمه عليه السلام بالمعجزات وهي كثيرة ثم أمدّه أيضاً بطريقة التعامل معها وفصل له كذلك طريقة إيصال الرسالة، فليست المعجزات

وحدها هي المكلفة بالدعوة بل لا بد من سياق عام تحمل به حتى تصل الرسالة على أتم وجه وأكمل بيان.

خاتمة:

وبعد فهذه جولة متواضعة أمضيته في ربوع جملة من مفردات علم الاتصال ك(المرسل والمستقبل والقناة والمستقبل والتشويش) أجلت فيها البصر وأمكنت النظر، مبينا موضعها في نصوص الوحيين، وكيف أن القرآن الكريم والسنة المطهرة بينت لنا جانبا من صور الاتصال الجماهيري الذي كان بين أنبياء الله وأقوامهم، وكيف أنهم في عملية دعوتهم المطهرة قد تعرضوا لصفوف العذاب وأشكال التنكيل وهو ما يسمى في علم الاتصال بالتشويش، وكيف أن مفهوم الاتصال ينعكس على الفرد والمجتمع بقيم إيجابية تظهر آثارها وتنضج ثمارها لترتقي بالأمم نحو سلم الحضارات، وهذه جملة من النتائج والصايا:

أولا: النتائج:

1- اختلف الناس في تعريف الاتصال الجماهيري، ولكنه يمكن الاعتماد على عناصره الأساسية في بيان حده، وعلى ذلك يكون تعريفه: عملية يقوم المرسل من خلالها بإرسال رسالته للمستقبل عبر قناة مشفرة بهدف الإعلام أو التثقيف أو الترفيه محاولا في ذلك تجنب كل ما يعيق إيصال رسالته.

2- مفهوم الاتصال الجماهيري لا يقتصر على وجود محطة إذاعية وإعلاميين كما يُتوهم بل يشمل كل عملية يتم من خلالها تبليغ رسالة معينة من المرسل للمستقبل عبر قناة محددة وفق شفرة ضابطة.

3- تعد الرسائل السماوية من أخصب مجالات الاتصال الجماهيري لما حوته من قيم ومثل غنية بالضوابط السلوكية والمجتمعية.

- 4- في نصوص الوحيين بيان كثير من عناصر الاتصال الجماهيري الذي جاءت به شريعة السماء، مع بيان طبيعة كل عنصر منها وبيان دوره المنوط به بالتحديد.
- 5- يمكن من خلال التغذية الراجعة الوقوف على نجاح دور الأنبياء في تبليغ الرسالة وبلاغ الدعوة، وقد جاء القرآن الكريم مفصلاً لكثير من تلك التجارب وذلك لأخذ العبرة والعظة.

ثانياً: التوصايا:

- 1- على الجهات المعنية برقابة وسائل الاتصال الحديثة التركيز على دور كل عنصر في عملية الاتصال الجماهيري وذلك من خلال وضع آليات عمل مشتركة تهدف لتوعية المستقبلين مع زيادة فاعلية دورهم في العملية التواصلية.
- 2- العمل على إبراز النتائج السلبية للمنظومة الإعلامية في حال عدم وجود قيم ضابطة ومثل أخلاقية عالية.
- 3- نصوص الوحيين زاخرة بأمثلة ونماذج عالية تهدف إلى بيان طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل وذلك في سياق تنزل الرسالات السماوية المختلفة.
- 4- تلاقي العلوم مطلب علمي قامت عليه كثير من الدراسات الناجعة في وصف كثير من الغوامض التي ما كانت لتظهر لولا ذلك التزاوج بين مفردات العلوم، وعلم الاتصال من العلوم الوليدة التي لم تبحث كثيراً في العلوم الإسلامية وهو ميدان حقيق بالبحث والتنقيح.

المراجع:

- 1) ابن عاشور (1393هـ)، التحرير والتنوير، الطاهر الدار التونسية للنشر.
- 2) ابن عطية (542هـ)، المحرر الوجيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.
- 3) ابن منظور (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

- 4) أحمد بن مصطفى المراغي (1371هـ)، تفسير المراغي، مطبعة البابي الحلبي، ط1، 1946م.
- 5) إدوين إمري وفيليب أولت وراين آجي، الاتصال الجماهيري، ترجمة: إبراهيم سلامة، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م.
- 6) برهان شاوي، الاتصال الجماهيري عناصره مستوياته وسائله مقوماته، محاضرات مفرقة.
- 7) حسين سمير مُحمَّد، الإعلام والاتصال الجماهيري والرأي العام، عالم الكتب، 1984.
- 8) حسين عماد وليلى حسين، الاتصال ونظرياته المعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 2008م.
- 9) خورشيد كامل مراد، الاتصال الجماهيري والإعلام، ط1، دار المسيرة، عمان الأردن.
- 10) رشتي (جيهان)، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر، ط1، القاهرة، مصر.
- 11) عبد الحميد مُحمَّد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر، 1997.
- 12) عبد الرحمن حسن حبنكة، فقه الدعوة إلى الله فقه الدعوة والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دار القلم، دمشق، ط1، 1996م.
- 13) فخر الدين الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 14) مُحمَّد أبو زهرة (1394 هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.
- 15) مُحمَّد بن إسماعيل البخاري (256) هـ، صحيح البخاري، طوق النجاة، ت: مُحمَّد زهير بن ناصر، ط1، 1422هـ.
- 16) مُحمَّد مُحمَّد عبد اللطيف بن الخطيب، أوضح التفاسير، المطبعة المصرية، ط6.
- 17) الموسى عصام سليمان، العرب وثورة الاتصال الأولى، ط1، وزارة الثقافة، عمان الأردن.

الهوامش:

- 1 ابن منظور (711هـ)، لسان العرب، فصل الواو، (728/11)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- 2 الموسى عصام سليمان، العرب وثورة الاتصال الأولى، ط1، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ص:28.
- 3 وذلك من خلال محاضراته في مادة الاتصال والإعلام ضمن مقررات أكاديمية نماء المرئية، المحاضرة1، د17 وما بعدها.
- 4 خورشيد كامل مراد، الاتصال الجماهيري والإعلام، ط1، دار المسيرة، عمان الأردن، ص:53.
- 5 ابن منظور (711هـ)، لسان العرب، فصل الجيم، (149/4)، دار صادر، بيروت.
- 6 مي العبد الله، نظريات الاتصال، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص:14.
- 7 ينظر إدوين إمري وفيليب أولت وراين آجي، الاتصال الجماهيري، ترجمة: إبراهيم سلامة، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م، ص:18، ينظر الاتصال الجماهيري عناصره، مستوياته وسائله مقوماته، برهان شاوي، المحاضرة الأولى، ص:16.
- 8 ينظر إدوين إمري وفيليب أولت وراين آجي، الاتصال الجماهيري، ترجمة: إبراهيم سلامة، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م، ص:18. وينظر برهان شاوي، الاتصال الجماهيري عناصره، مستوياته وسائله مقوماته، المحاضرة الأولى، ص:16.
- 9 أخرجه البخاري، في صحيحه، باب زيادة الإيمان ونقصانه، (18/1)، برقم (45)، دار طوق النجاة، ت: مُجَدَّ زهير بن ناصر، ط1، 1422هـ.
- 10 ينظر مُجَدَّ أبو زهرة (1394 هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، (2024/4).
- 11 ينظر ابن عاشور (1393هـ)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (384/23).
- 12 ينظر فخر الدين الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (371/12).
- 13 أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، من حديث عكرمة بن أبي جهل، (392/7).
- 14 ينظر أحمد بن مصطفى المراغي (1371هـ)، تفسير المراغي، مطبعة الباي الحلبي، ط1، 1946م، (40/1).
- 15 أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب التيمم، (74/1)، برقم (335).
- 16 البخاري، في صحيحه، باب قول الله {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} [مريم: 16]، (167/4)، برقم (3443).
- 17 ينظر ابن عطية (542هـ)، المحرر الوجيز، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، (5، 182)، وينظر تفسير المراغي، (12/27).
- 18 الرهط: أي الجماعة من الناس من الثلاثة إلى ما دون العشرة.
- 19 أخرجه البخاري في صحيحه، باب من أكتوى أو كوى غيره، (127/7)، برقم (5705).
- 20 ينظر ابن عطية (542هـ)، المحرر الوجيز، (13/5).
- 21 مُجَدَّ عبد اللطيف بن الخطيب، أوضح التفاسير، المطبعة المصرية، ط6، (586/1).
- 22 ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة، فقه الدعوة إلى الله فقه الدعوة والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دار القلم، دمشق، ط1، 1996م، (365/2).